المقدمة

هذه رؤية جديدة لموضوع قديم أخرجها صاحبها لطلابه بكلية الآداب جامعة الاسكندرية فى ثلاث طبعات محدودة العدد مقيدة بمنهج دراسى يدعو إلى مراجعته، وكان يناقش مع أبنائه القضايا المطروحة فى هذه الدراسة. وقد أجاب فى الطبعة الثانيه عن كثير من أسئلتهم، وفى الطبعة الثالثة وجد أن بابا خطيرا يجب أن يضاف، واليوم يرى المؤلف أن طلابه صاروا مؤيدين لهذه الرؤية الجديدة وأن من حق هذه الدراسة أن تأخذ مكانها بين كل دارسى الأدب، وجمهور الأدباء فالمؤلف وطلابه النجباء شركاء فى إخراج هذه الرؤية الجديدة للأدب العربى ودراسته التى تخرج للمرة الأولى فى كتاب للقراء عامة.

والجدة فى هذه الدراسة راجعة إلى أن صاحبها بناها على مراجعة البدهيات المألوفة، وعلى تصويب المقدمات التى تعودنا جميعا على التسليم بها دون أن نفطن لضرورة مراجعتها، لأنه أيقن أن للعادة تأثيرا سيئا على البحث فى الدراسات الانسانية هو أشبه بتأثير المخدر على من تعود عليه، وقد قاوم الدارس هذا التأثير.

فلا غرابة فى جدة نتائج هذا الدرس، وفى خطرها، وفى بعد أثرها فى تصور ما الأدب، وفى فهم دراسة الأدب التى تعددت مسمياتها بين البيان، والبلاغة، والنقد، والبديع، وعلم صنعة الشعر، وفن القول؛ فما يزال الكثير منا يتصور أنها أشياء مختلفة متباينة وعندنا: إنها مسميات عدة لمسمى واحد.

والمؤلف يعد قراءه أن يصدر عند معالجته قضايا الأدب ودرسه عن فكر بلاغى متكامل متسق مع أصالة الموروث، وأن يطهر هذا الموروث ماأمكنه التطهير مما سماه القدماء: التلبيس وتعارف المحدثون على تسميته: الأيديولوجيا.

وهذا يعنى أنه يكتب لهم مالم يتعودوا عليه، وما سيجعلهم يتساءلون: كيف لم ننتبه إلى مراجعة كل هذه البدهيات التى ألفناها، ويرجو أن تنال هذه الدعوة إلى دراسة جديدة للأدب حقها من التأييد أو الرفض اللذين يستدعيان التعامل مع الحجج والأدلة والشواهد. وقد سبق للمؤلف أن أخرج كتابه (علم البديع رؤية جديدة) أعلن [١] فيه بعض ملامح هذا الفكر الجديد فى درس الأدب وسمع آراء عديدة من كبار الدارسين ولكنه لم يقرأ دراسة مؤيدة أو معارضة له. وكتاب (البديع رؤية جديدة) فرع عن هذا الأصل، ولكن ميلاد الفرع قدر له أن يظهر قبل هذا الأصل فى ثوبه الجديد. [٢]

وأخطر البدهيات التى تعامل معها المؤلف تعودنا على تصور الجاهلية إنها إطار زمنى مقابل للإسلام. ورأى أن البديل الصحيح لهذه المقولة أن الجاهلية مضمون فكرى قديم وممتد إلى عصرنا، وأن الجاهلية لم تشمل العرب قبل الإسلام، وهذا يعنى أن المقابل للجاهلية هو الإيمان، فالجاهلية كانت وماتزال فى صراع مع الهداية والحكمة ومانراه اليوم لاتفسير له إلا أنه الجاهلية من الإغارة على الجار صباحا والسرقة والاغتصاب وإطلاق النار على المصلين والقتل: إنها جاهلية صدام.

وأقام الدارس بحثه على فهم جديد للأدب مستمد من هذه الحقيقة لجديدة - إن الجاهلية مضمون فكرى - فوجد أننا بإزاء أدبين، وبإزاء درسين للأدب. ولم تشغله اختلاف مسميات الأدب ومسميات درس الأدب عن المضمون فى إنشاء الأدب ودرسه، ووجد أن القضية الجديرة بالدرس هى ولاء الأديب ودارس الأدب أللقوم أم للفكرة من أى مكان جاءت.
كما بنى دراسته هذه على تصور للموهبة الأدبية مستمد من التراث [٢] موجزه إن الموهبة الأدبية فضل يؤتيه الله من يشاء، متى يشاء، وإنها ضرورية لوجود الأديب ولابد من نموها بالاكتساب من التراث القديم والأدب المعاصر.

فالموهبة الأدبية تنمو بالعوامل الوراثية إن وجدت، وبالاكتساب من التراث ومن البيئة. وهذا يعنى أن صاحب الموهبة أعد لكى يكون قائدا فى مجال نبوغه، فى الحرب كعمرو بن معديكرب وخالد بن الوليد والمهلب ابن أبى صفرة وغيرهم من الأبطال الذين التف حولهم قومهم وتعلق حاضر قومهم ومستقبلهم بهم. وفى القضاء كعمر بن الخطاب. وعلى بن أبى طالب ومالك بن أنس وإياس بن معاوية المزنى...

تتنوع وتتسع مجالات النبوغ وتضيق أمام شخصيات عديدة فى تراثنا ويظهر من أدبائنا السياسى، والقائد الحربى، والقاضى والمفكر. ويدرك كثير منهم أن صاحب الموهبة بطل مكلف بقيادة الجماعة فى مجال نبوغه إلى ما فيه خيرها، لأن الموهبة كما أفتى الامام تقى الدين أحمد بن تيمية -ولاية أعين صاحبها عليها بالتميز الذى خصه الله به.[٤]

وتفصيل هذه المقولة إن الأديب يتعامل مع القيم الخلقية والجمالية حين يصور، وحين يمدح وحين يهجو، وحين يتغزل، وحين يرثى. وهو يقدم نتاجه الأدبى إلى جمهور يعتبره حارسا أو محتسبا على قيمه. والأديب يقدم عملا نقديا فى أدبه الإنشائى. أما الناقد المتخصص فلابد أن يتمتع عندنا بقدرة فطرية على إنشاء الأدب إلى جانب قدرته على درسه. فالموهبة لأدبية، كما نتصورها، ذات مظهرين : إبداعى ودرسى، ومعنى هذا أن ولاية القيم الجمالية والأخلاقية يقوم عليها الأديب ودارس الأدب معا.

والأدب فى تصورنا دعوة، والأديب داعية منهجه وأسلوبه مختلفان عن مناهج رجال الدين وأساليبهم مع اتحاد الغاية، وتستطيع أن تستمع إلى خطيب يعظ الناس بشأن الزنا باعتباره كبيرة أجمعت الكتب السماوية على تجريمها..... وتقرأ (الرباط المقدس) لتوفيق الحكيم وستصل من خلال المقايسة بين عمل رجل الدين وعمل رجل الأدب إلى ما عرضناه عليك : الأدب فى حقيقته دعوة، والأديب داعية كالواعظ غايتهما واحدة: الصلاح والإصلاح وأن تكون كلمة الله هى العليا، ولوسيله مختلفة. فالأديب فى الأقصوصة أو الرواية أو المسرحية يعرض عليك تجربة متكاملة تدرك من خلالها - بطريق غير مباشر - آثار الزنا المدمرة والأهوال والمآسى التى أعقبت النزوة والعلاقة المحرمة. فالوعظ عبارة مباشرة ناهية، والأدب تجربة متكاملة رادعة لمن تسول له نفسه تكرارها فأمامه نتائج التجربة شاخصة واعظة بلسان الحال لابلسان المقال.

وهذا الباب الذى فتحناه يفضى بنا إلى أبواب عديدة هى المقايسة بين المؤرخ والأديب، وعالم النفس والأديب، ورجل الاجتماع والأديب، ورجل السياسة والأديب، ورجل الاقتصاد والأديب، ورجل الحرب والأديب. معنى هذا أن الأديب فى تصورنا جهاز إعلامى متكامل له وظيفة خطيرة الشأن قوية التأثير قادرة على الإقناع بالتصوير والتمثيل والتفسير.

وإذا كان الأدب متجددا تجدد الحياة فى نوعه؛ قصيدة وخطبة ورسالة وقصة ومسرحية ومقالة. وفى موضوعاته التى تجدل فيها الأغراض، من وصف ومدح ورثاء وهجاء - بالمواقف أو وجهات النظر، بالسياق أو التجربة التى كان العمل الأدبى صدى لها وكان الأدب مختلفا تبعا لتفاوت مواهب الأدباء واكتسابهم وخبراتهم فهل يتوقع الدارس أن يقبل منه قوله إن الأدب دعوة وإن الأديب داعية؟ وأين يضع أدب المجون وأدب التحرر والثورة؟! وكيف يتصور أنه قادر على حصر هذا التباين الجسيم بين الأدباء بعد أن أقر باختلاف الزمان والمكان والمكين؟

يرى الباحث أنه أوجد حل هذا الإشكال بالمتغير الجديد الذى درسه بتحديد مفهوم الجاهلية فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة واللغة، والذى وجده فى كتب السيرة المعتمدة وكتب الاختيارات الأدبية التى غدت أركان الأدب العربى. وانتهى إلى أن الجاهلية ليست إطاراً زمنيا - كما ذهب المستشرق الايطالى كارلو نالينو ومن تبعه من المستشرقين والباحثين العرب - وإنما هى مضمون فكرى. بحيث يصح أن ندرس

السمات الجاهلية فى شعر الفرزدق، وأن ندرس ادب النقائض باعتباره ادبا جاهليا، وأن ندرس المقايسة بين معانى جرير ومعانى الفرزدق باعتبارها مقايسة بين أدب إسلامى وأدب جاهلى. وأن ندرس شعراء النصارى واليهود ومن ترك عبادة الأصنام قبل البعثة المحمدية على أنهم شعراء متألهون نقابلهم بالشعراء الجاهليين قبل البعثة....

كما حل الباحث هذا الإشكال بالمتغير الجديد حين راجع مسميات دراسة الأدب حيث فسر السياق الذى ولد فيه كل منها، واستكشف الفروق الدقيقة بين كل منها، وتتبع تطور دلالاتها متى أريد بها معنى عام لدراسة الأدب، ومتى أريد بها وجه من وجوه الدراسة الأدبية، وأيها أحق بأن يكون اسماً عاماً لدراسة الأدب، وما القاسم المشترك بين هذه الأسماء العديدة لهذا المسمى الواحد، وعلل لماذا يؤيد رأيا دون سواه فى قضية كثرت فيها الآراء واختلفت.

وانتهى إلى أن انفصل بين النقد والبلاغة لايقوم على أساس علمى، وأن التقسيم الزمنى للأدب إلى أعصر بمثابة حوائط عالية مانعة لرؤية ماوراءها، وصارفة عن المقايسة بين أديب عربى وأديب غربى فى قضية واحدة هى مجال عطاء ونبوغ كل منهما فى معالجتها بدعاوى لاتقوم على حجج مقبولة.

كما وجد فى درس قضية الولاء حلا لهذا الإشكال ، فقد اعتبرت هذه القضية من البدهيات التى لاتحتاج إلى بحث لأن الأديب ودارس الأدب يضرب بهما المثل فى صحـــــة الولاء وقوتــه. والقضية اليـوم فـــى

حاجة إلى أن تؤصل وتنظر بعد أن استشرى الولاء للفكرة من أى مكان جاءت، وصار الولاء للفكرة هو المقابل للولاء للتراث والتراب والأهل. وسمعنا وقرأنا لمن يدافعون عن التنوير الثقافى، وعن التغريب الذى صار استغرابا، ووجدنا أصحاب هذه الدعاوى يتشدقون إنهم أصحاب الوطنية الصادقة والرسالة السامية وحقيقة الأمر إنهم (يصدون عن سبيل الله من آمن ويبغونها عوجا).

وكنا ومانزال نخجل أن نسجل تلك الكتابات ونرد على أصحابها، ونرى أنهم محتاجون إلى الستر، وأن هذه العبارات كانت تشكل مواقف رجع أصحابها عنها وأنهم أصحاب الولاء الحقيقى للتراب وللتراث بعد أن حققوا لأنفسهم الشهرة التى كانوا يطمحون إليها، ولكن تبين أن الخرق اتسع على الراقع، والخطب خطير.

والحقيقة إن المحاولات العديدة المنظمة الممتدة بخبث وإلحاح منذ القرن الماضى لتغريب أدبائنا ودارسى أدبنا هى الصورة الحديثة للاستعمار، لهذا سيجد القارىء أننا نكشف له أسماء كان يظن أنها بمنأى من ذلك، وعندنا غيرها ندرس أعمالهم وقد نقدمهم لك فى الطبعة الثانية من هذا الكتاب ونردد لك عبارة قالها الجاحظ لتدرك -كما أدركت-أن إفساد الولاء للقوم، للتراب، للتراث داء قديم ممتد إلى يومنا هذا وهو مخالف للإيمان، لأنه دعوة إلى عبادة الأصنام. فالأوثان الحجارة التى تعبد من دون الله.

أما الأصنام فما يعبد من دون الله إطلاقا. فتقديس العقل وجعله مصدراً للتشريع عبادة أصنام. قال تعالى: (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ...) [٥] فتقديس نظرية كالشيوعية والوجوديه، وتقديس حاكم مستبد، وتقديس حيوان، وتقديس مكان لم تنص عليه الشريعة كل ذلك وأشباهه شرك بالله. قال أبو عثمان الجاحظ مشيرا إلى شيخه بى عبيدة معمر بن المثنى الذى أجمع من ترجموا له على أنه لم يمش فى جنازته أحد: «ولولا أن أكون عيابا، ثم للعلماء خاصة لصورت لك فى هذا الكتاب بعض ماسمعت من أبى عبيدة ومن هو أبعد فى وهمك من أبى عبيدة» [٦] فهل نملك الشجاعة لكى نقول لمن يفسدون علينا ديننا ووطننا باسم النقد الأدبى أن نقول لهم كفوا عن هذا. لقد دعوت أحدهم فى كتابى (البديع رؤية جديدة) إلى مناظرة أمام الصحافة فنكل، لقد روج لفكر أدونيس فى الثابت والمتحول أى إلى شيوع المال والنساء؟!

ومما كنا نعده من البديهيات المألوفة ما سمعناه من شيوخنا فى مجالس التعليم أن الأدب هو المقابل للعلم، وقد اشتهرت مقايستهم بين الأسلوب الأدبى والأسلوب العلمى أن الأول من سماته سطحية الأفكار، والخيال المجنح الذى هو وليد العاطفة، والعبارة المشرقة الأنيقة. وأن الأسلوب العلمى من خصائصه الاحتكام إلى العقل وسلامة المقدمات وصحة النتائج، والاستقراء، والتدقيق فى اختيار الألفاظ ذات الدلالات المحددة وهجر الخيال.

ويدلل على ماأجملناه بقول الدكتور شوقى ضيف فى سياق تعريفه مادة البحث الأدبى: «إن الأدب يخاطب العاطفة والعواطف غامضة أو يجللها الغموض. وقد سماها علماء النفس وأحصوها. غير أن تحليلها إلى عناصر لايزال شاقا عسيرا، فنحن إنما نلاحظ مايصحبها من بعض المظاهر المادية كالضحك والعبوس والبكاء.. أما هى نفسها فلانستطيع أن نسبر أغوارها، إذ ليس لدينا أية مقاييس نقيسها بها ولا لدينا مختبرات يمكن أن نحللها فيها. والأدب -كما هو ذائع مشهور- يقصد به إلى إثارة الانفعالات فى قلوب القراء والسامعين. ولذلك كان يعتمد على الخيال. يعتمد عليه فى التركيب الكلى لآثاره..

الأدب لابد فيه من الأفكار والخوالج والخواطر والمعانى حتى يؤثر فينا وحتى نحس بمتاع فيه. لأنه يخاطبنا ويحدثنا. وعن طريق حديثه وفهمنا له يكون متاعنا بكلامه وما يحمل من غذاء لعواطفنا ومشاعرنا، وهو غذاء وجدانى، قد يداخله الفكر. وقد يداخله العقل والذهن. ولكن لا يتحول عن وظيفته من إثارة الانفعالات فى الإنسان، بل لكى ينهض بها على خير وجه. والأدب بذلك ليس وعاء من أوعية الذهن والعقل إنما هو وعاء للمشاعر والعواطف الإنسانية، ولذلك كان لايطلب فيه أن يؤدى حقائق عقلية أو ذهنية. يؤدى حقيقة منها أو بعض حقائق، ولكن هذا ليس من وظيفة الأدب، فوظيفته أن يؤدى حالات ومواقف وجدانية....

فليس له غاية وراء نفسه ووراء مايثير من العواطف والانفعالات، إذ كل مافيه، إنما هو مشاعر وأحاسيس وعواطف ووجدانات لاتعبر عن حقيقة ولا عن باطل ولاعن صدق ولاعن كذب، وهو مايفرق بينه وبين العلم...

إن الصدق والكذب إنما هما نمطان أخلاقيان، ولاعلاقة للأخلاق بالأدب. وإلا كنا كمن يحتكم فى المسائل الرياضية إلى الأخلاق.... من الخطأ أن نحكم فيه المسائل الأخلاقية وأختها الاعتقادية...

وكأنهم (أسلافنا) أحسوا فى عمق بأن للشعر مجاله العاطفى الخاص الذى يفصله عن كل مجال سواه من أخلاق وعقيدة ومن حق وباطل ومن صدق وكذب، فلم يحكموا فيه شيئا من ذلك كله إذ رأوها جميعا مقاييس خارجة عن دائرته العاطفية»»(٧)

نرجو أن نكون قد أدينا أسس تصور شيخنا الدكتور شوقى ضيف للأدب بإيجاز وأمانة ودقة بقلمه. والحقيقة الجوهرية فى تصـــوره أن سيادته حكم على الأدب من خلال حكمه على الشعر، وهذا ظلم بين للنثر، مقالة وقصة وأقصوصة ومسرحية، لهذا تصور أن الأدب عاطفة يدرك الأديب الأشياء بعاطفته، ويقصد بما ينتجه إلى إثارة الانفعالات فى قلوب القراء والسامعين، ويسلك طريقا مألوفا إلى ذلك بالخيال، والخيال عنده نوعان: كلى متمثل فى تكوين العمل الروائى وخلق شخوصه وما يجرى على ألسنتهم من أقوال وعلى أيديهم من أفعال. وجزئى وعناصره لغته التصويرية وما يتداخل فيها من التشبيه والمجاز والكناية والاستعارة.

ودور العقل فى الأدب محدود، لأن الأدب -عنده- ليس وعاء من أوعية الذهن والعقل، وإنما وعاء للمشاعر والعواطف الإنسانية ونسى سيادته أن الخيال نشاط عقلى (٨)

والنتائج التى رتبها على هذه المقدمات: أن دور الحقائق العلمية محدود فى الأدب. فوظيفة الأدب أن يؤدى حالات ومواقف وجدانية. وأن من الخطأ أن نحكم فى الأدب، المسائل الأخلاقية وأختها الاعتقادية وأن كل ما فى الأدب إنما هو مشاعر وأحاسيس وعواطف ووجدانات لاتعبر عن حقيقة ولاعن باطل ولاعن صدق ولاعن كذب، وهو مايفرق بينه وبين العلم.

ونحن لانخالف أستاذنا بالنسبة لدور العاطفة فى العمل الأدبى، ولكننا نختلف معه فى فصله بين العاطفة والعقل، وفى تقليله دور العقل فى العمل الأدبى وتضخيمه دور العاطفة. فهذا الفصل مستحدث لم يعرفه القدماء، ووافد لايقره التراث.والمقرر فى تراثنا أن العاطفة والعقل مجال عملهما متداخل تداخل ضفيرتى الشعر، فالأديب يفكر بقلبه ويحس بعقله. وهذا الفصل بين العاطفة والعقل عقيم كالفصل بين اللفظ والمعنى فكلاهما لا يمثل حضارتنا، وحجج أصحابه واهية أثبتت الدراسات اللغوية فى علم الدلالة عدم صحتها.

واختلافنا مع الدكتور شوقى ضيف فى المقدمات يترتب عليه اختلافنا معه فى النتائج، فاللغة فى العمل الأدبى مادة علمية استشهد بها العلماء وهى حجة بنى عليها العلماء معارف كثيرة. ومعارف الشاعر فى الفلك بل فى الجغرافيا بفروعها، وفى أيام العرب، وأنسابهم، وفى الحيوان، والنبات، والجماد -معارف علمية. والشاعر حجة فيما يقول يؤاخذ إذا خالف معارف قومه، لهذا عد الشعر ديوان العرب الذى يسجل معارفهم فى شتى

المجالات. وقد عدوا تقصيره فى وصف ماشاهده من سقطاته التى يؤاخذ عليها، كما سجلوا عليه تقصيره فى تشبيه الشاهد بالغائب. ولم يخلطوا بين مسؤوليته العلمية هذه وبين تعبيره عن عواطفه ففرقوا بين تشبيه التحقيق وتشبيه التقدير. وعنوا بتشبيه التحقيق الوصف العلمى الصادق الدقيق للأشياء. وأرادوا بتشبيه التقدير: تقديره الأشياء بوجدانه فى حالات الرضا والغضب والرغبة والرهبة.

فرؤية الشاعر الحياة فى لحظات شعورية خاصة أمر من أمور العاطفة والعقل معا وهذه الرؤية تخص العلم بالنفس. بهذا نقول إن الأدب قرين العلم فى حضارتنا، وليس الأدب مقابلا للعلم كما يذهب الدكتور شوقى ضيف. فالأدب عندنا يوازى العلم ولا يقابله.

أما قوله (لاعلاقة للأخلاق بالأدب) وقوله (من الخطأ أن نحكم فى الأدب المسائل الاعتقادية) فيصدر فيه عن تصور أن الجاهلية هى الأدب، ويتناسى الأدب الذى اتسقت فيه قيم العروبة مع الاسلام، ويصدر فيه عن تصور للأدب وافد على تراثنا وحضارتنا مرفوض من شيوخ الأدب أصحاب أركان الأدب الأربعة. وقوله عن الأدب إنه غذاء وجدانى (قد يداخله الفكر وقد يداخله العقل والذهن ولكن لا ليتحول عن وظيفته من إثارة الانفعالات فى الإنسان، بل لكى ينهض بها على خير وجه) يستبعد فيه د. شوقى ضيف أن يصدر الأديب عن فكر نقدى خاص يحمل بصمات شخصيته القومية وشخصيته الفردية. وهذا يعد إنكارا للإبداع فى أجلى معانيه وأروعها ويحرم الأمة أن تفخر ببطولة الأدباء الفلاسفة،

وهم كثيرون، منهم الجاحظ والمتنبى، والمعرى، وأحمد شوقى.... وذلك القول يناقض به د. شوقى ضيف نفسه، فقد أسهمت دراساته الأدبية فى كشف هذه العبقريات الأدبية.

وقد رأينا -كشفا لهذا التصور المرفوض للأدب- أن نقدم البديل الصحيح فى تصورنا لأديبين دارسين للأدب، أحدهما قديم هو الجاحظ. وثانيهما معاصر هو شيخنا الأستاذ محمد خلف الله أحمد وهما يذهبان إلى أن الأدب قرين العلم وليس مقابلا له، وأنه موجه الجماعة إلى مافيه خيرها ويقرنان الأدب بالدنيا والدين معا.

قال الجاحظ فى صدر كتابه (المعاد والمعاش) الذى سماه (كتاب الآداب) مخاطبا أبا الوليد محمد بن أحمد بن أبى دواد حين ولى ديوان المظالم وقضاء القضاه ببغداد سنة ٢٣٣هـ: «إن جماعات أهل الحكمة قالوا: واجب على كل حكيم أن يحسن الارتياد لموضوع البغية. وأن يتبين أسباب الأمور ويمهد لعواقبها فإنما حمدت العلماء بحسن التثبت فى أوائل الأمور واستشفافهم ماتجىء به العواقب فيعلمون عند استقبالها ماتؤول به الحالات فى استدبارها، وبقدر تفاوتهم فى ذلك تستبين فضائلهم... فرأيت أن أجمع لك كتابا من الأدب جامعا لعلم كثير من المعاد والمعاش، أصف لك فيه علل الأشياء. وأخبرك بأسبابها وما اتفقت عليه محاسن الأمم...

فألفت لك كتابى هذا، وأنا واصف لك فيه الطبائع التى ركب عليها الخلق وفطرت عليها البرايا كلهم، فهم متساوون فيها وإلى وجودها فى

أنفسهم مضطرون وفى المعرفة بما يتولد عنها متفقون. ثم مبين لك كيف تفترق بهم الحالات وتتفاوت بهم المنازل، وما العلل التى يوجب بعضها بعضا. وما الشىء الذى يكون سببا لغيره متى كان الأول كان ما بعده وما السبب الذى لايكون الثانى فيه إلا بالأول وربما كان الأول ولم يكن الثانى وفرق مابين الطبع الأول وبين الاكتساب والعادة التى تصير طبعا ثنيا. ولم اختلف ذلك وكيف دواعى قلوب الناس، ومامنها يمتنعون منه، ومامنها لايمتنعون منه. وما أسباب نوازع شهواتهم، وما الشىء الذى يحتال لقلوبهم حتى تستمال، وحتى تؤنس بعد الوحشة وتسكن بعد النفار، وكيف يتأتى لينقض مافيهم من الطبائع المذمومة حتى تصرف إلى الشيم المحمودة. وراسم لك فى ذلك أصولا، ومبين لك مع كل أصل منها علته وسببه. وقد علمت أن فى كثير من الحق مشتبهات لاتستبان إلا بعد النظر. وهناك يختل الشيطان أهل الغفلة، وذاك أنه لايجد سبيلا إلى اختداعهم عن الأمور الظاهرة. فلم أدع من تلك المواضع الخفية موضعا إلا أقمت لك بإزاء كل شبهه منه دليلا، ومع كل خفى من الحق حجة ظاهرة، تستنبط لها غوامض البرهان وتستبين بها دقائق الصواب، وتستشف بها سرائر القلوب، فتأتى ماتأتى عن بينه، وتدع ماتدع عن خبرة...

ثم لاأرسم لك من ذلك إلا الأمر المعقول فى كل طبيعة، والموجود فى فطر البرايا كلها»...(٩)

اخترنا هذا النص للجاحظ لأنه يثبت أن الأدب الذى يصوره الدكتور شوقى ضيف هو أدب أمة لانعرفها. وأدب الجاحظ -كما ترى- يخاطب العقل كما يخاطب القلب، وهو بحكم أعماله التى نجت من الضياع أديب كبير نشأت دراسة الأدب على يديه.

ونص الجاحظ يثبت أن العواطف ليست غامضة فى أدبنا، فالسلف عرفوا الطبع الأصيل والطبع المكتسب، وفرقوا بين العداوة والحسد، وبين المديح إحمادا والمديح رغبة. ورفعوا الأول على الثانى، وعرفوا كيف دواعى شهوات الناس. وكيف ينقض مافيهم من العادات الرديئة بعادات حميدة بإنبات وازع الحماسة للدين ومايمثله من قيم، والحماسة للرجولة وللقبيلة وللوطن، فالأدب لون من علم النفس قبل أن ينشأ هذا العلم فى العصر الحديث، وحديث الجاحظ أدخل فى علم نفس الفرد والصحة النفسية.

والأدب -كما هو واضح من نص الجاحظ- مرتبط بالعقيدة والأخلاق، والأديب مفكر فى أمور قومه رائد لهم -والرائد لايكذب أهله- وعاطفة الأديب موجودة ولكن عقله يعلن عنها.

لقد كتب الجاحظ هذه الرسالة مصورا الأدب العربى الأصيل وسماها (المعاد والمعاش) ويقصد بهذه التسمية إن أدب الدنيا الصحيح متسق مع شريعة السماء، ولهذا قال إن الآداب: (آلات تصلح أن تستعمل فى الدين وتستعمل فى الدنيا، وإنما وضعت الآداب على أصول الطبائع، وإنما أصل أمور التدبير فى الدين والدنيا واحدة، فما فسدت فيه المعاملة فى الدين فسدت فيه المعاملة فى الدنيا.

وكل أمر لم يصح فى معاملات الدنيا لم يصح فى الدين. وإنما الفرق بين الدين والدنيا اختلاف الدارين من الدنيا والآخرة فقط، والحكم هاهنا هو الحكم هناك. ولولا ذلك ماقامت مملكة، ولاثبتت دولة، ولااستقامت سياسة.)(١٠)

وجعل الجاحظ هذه الرسالة بمثابة معارضة لمفهوم الأدب الذى صوره ابن المقفع فى أدبيه الصغير والكبير. وهذا ما ذهب إليه أستاذنا الدكتور طه الحاجرى ونذهب إلى أبعد من ذلك كما سترى فى حديثنا عن التنوير.

أما شاهدنا المعاصر لتصويب فهم أستاذنا الدكتور شوقى ضيف للأدب فهو قول أستاذنا محمد خلف الله أحمد: «إن ثروة العرب فى دراسات النفس والاجتماع قد احتواها أدبهم -وهو ديوان معارفهم- فمن رام كشفها فلينقب عنها فى وادى الأدب قبل أن ينشدها فى مجاهل الفلسفة»(١١) وقلنا فى التعريف بمنهجه فى دراسة الأدب: «الجدير بالتسجيل أن أستاذنا عرف طريقه منذ أوائل الثلاثينات وسار فى نفس الدرب حتى أواخر السبعينات. والمتتبع لجهوده فى هذا الميدان يجد أنها تتسم بعدة ملامح:

* شدة إيمانه بتراثه العربى الإسلامى وترابه المصرى، ولاتعارض فى هذا فبعض هذه الأمور يفضى إلى بعض، ويكمل الواحد منها الآخر.

* واختياره من الدراسات الغربية ما يعين على فهم هذا التراث، وقد كان اختياره حصيفا حكيما حين نأى بالدراسات الأدبية عن الآراء التى تثير

بلبلة وشكوكا، وانتهج الدراسة الموضوعية فتأدى له التوفيق بين الموروث والمعاصر، بين قداسة الدين وحرمة العلم.

* ومن هذه السبيل أن الدراسة الأدبية الغربية اتفق الدراسون العرب على ترجمة مضمونها تحت عنوان (النقد) وهو مصطلح قدمه فى العربية ابن سلام الجمحى على سبيل التمثيل بالصراف الذى يخرج المعيب من النقود. وفى تراثنا نجد (البديع) و (علم صنعه الشعر) و(البلاغة) و(البيان) أقدم استعمالا، لذلك كان السلف حريصين على تسمية الدراسة الأدبية للنص القرآنى بلاغة وإعجازا، تنزيها للقرآن مما يتضمنه مدلول (النقد) من معنى إظهار المعيب. وقد نص أستاذنا محمد خلف الله أحمد على وجوب تسمية الدراسة الأدبية للنص القرآنى (بلاغة) تنزيها للقرآن عن هذا المعنى واحتراما لدراسة أصيلة ناضجة فى تراثنا. والمشاهد أن بعض الدارسين سايروا الأوربيين فى التسمية فأدخلوا الدراسات القرآنية تحت مسمى (النقد) ففسدت عقيدتهم كما فسدت لغتهم حين جعلوا الخاص بالمآخذ عاما يشمل الاعجاز والبلاغة والبديع؟!!

* وقد أرسى أستاذنا قواعد الدراسة النفسية للأدب من خلال موضوعيته ومنهجيته وما عرف به من عزوف عن الجدل العقيم وبعد نظر، وكانت تحكم دراساته معايير أشبه بما عرف فى الدراسات الأدبية العربية بإصابة المقادير، فلم تصرفه مقالات الدكتور محمد مندور -العنيفة الداعية إلى التفريط فى تراثنا البلاغى وخوض معارك فرعية

باسم النقد- عن منهجيته [١٢] ، ولم يتحمس الأستاذ محمد خلف الله أحمد للدراسات النفسية التى أسرفت فى تصوير شخصية الشعر وقصرت فى دراسة شعره كدراسة الأستاذ عباس محمود العقاد عن أبى نواس الحسن بن هانىء.

* ووجدناه فى هدوء العالم وتجرده يسجل جهود دارسى الأدب فى الاستفادة من نتائج علم النفس... مما يقوم دليلا على نجاح هذا الاتجاه الذى عقدت ريادته له.

* أما دراسته التراثية للأدب فقد كشفت عن جوانب من إدراك أجدادنا لصلة علم النفس بالأدب، وقد نادى غير مرة أن ماكشف عنه قليل بالنسبة لتراثنا العظيم وهو فى حاجة إلى جهود الدارسين المخلصين. [١٢]

وقال الأستاذ منبها الأجيال القادمة من الباحثين إلى مسؤولياتهم التى يجب أن يضطلعوا بها خدمة لأمتهم: «لاتزال جوانب كثيرة من الحركة العلمية خلال العصور فى حاجة إلى كشف وتأريخ، ولعل من بين العوامل المسؤولة عن هذا عدم مساهمتنا- نحن العرب المعاصرين- مساهمة جدية فى النهضة الحديثة لتلك الدراسات، فكلما اتصلنا بها وقرأنا تاريخنا على ضوئها بدا لنا أن تراثنا العربى من الوجهة العلمية تراث خصب حافل، وأن أسلافنا بحثوا وحققوا وابتكروا حين كانت أمم أخرى لاتزال تدرج فى مهد العلم والتفكير.

وقد زاد المسألة عندنا غموضا أن نواحى من التفكير العلمى العربى قد احتوتها كتب الأدب، وقد تعودنا فى العصر الحديث أن نقيم الحدود بارزة بين العلم والأدب، وأن كثيرا من علمائنا المعاصرين -ولهم عذرهم فى هذا- مشغولون بتتبع الخطوات العلمية الحديثة فى الغرب، وأن هناك من لايكفون عن التنقيص من قدر الجهود الدراسية فى تاريخ الأدب العربى، فهى عندهم إما مجلوبة مقلدة، وإما شكلية عقيم تعنى بالعرض دون الجوهر...(١٤)

أردنا أن نوقفك من خلال تعريف الدكتور شوقى ضيف الأدب، وتعريف الجاحظ له والتعريف بجهود الأستاذ محمد خلف الله أحمد فى دراسة الأدب العربى من الوجهة النفسية -على أننا بازاء أدبين ودراستين للأدب ولسنا أمام أدب واحد ومنهج واحد فى دراسة الأدب.

وأردنا أن تقف من خلال المقايسة بين اتجاه الأستاذ محمد خلف الله أحمد فى دراسة الأدب واتجاه الدكتور شوقى ضيف فى دراسته - على حاجة دارس الأدب إلى شعور جارف بالحب لتراثه وغيرته عليه أى إلى الولاء للتراث. ولاتصدقن من يزعم لك أن ما نطلبه ينافى التجرد من الأهواء والحياد والموضوعية والمنهجية وهى من صفات العالم الدارس للأدب، فالولاء شرط لابد من تحققه فى الأديب المنشىء ودارس الأدب معا، والولاء ليس منافيا للحياد العلمى والمنهجية العلمية، لأن الفهم الصحيح هو الخطوة الأولى فى طريق الحب.

إننا نصدر فى هذه الدراسة عن فكر واضح وضوح اليقين، موجزه : إن أمتنا العربية متصلة أنسابها، وممتدة عبر أقاليمها - المتباعدة مكنا المتعاقبة زمانا - امتداد الأوردة والشرايين ،التى يدفع القلب عبرها الدماء بدقات منتظمة انتظام الشهيق والزفير.هذه حقيقة واقعنا بإيجاز، والواجب على كل عربى أن يحمى هذه الحقيقة.

وهذا الاتصال القديم المتجدد تجدد الحياة مفسر لماذا اتسقت العروبة مع الإيمان، فلا انقطاع بل تواصل دائم. ومفسر أيضا لماذا كانت القيم الخلقية والجمالية لهذه الأمة راجعة لمعايير واضحة أقرتها الجماعة وعبرت عن حضارة متميزة الشخصية، متسقة المظاهر فى القول الحكيم المبين، فى المطعم والمشرب، فى زينة الرجل، وزينة المرأة، فى شؤون السلم وشؤون الحرب.

وقد أجملوا هذا المعيار بقولهم: (إصابة المقدار) واعتبروا ماخالفه من المآخذ. ومناط الإصابة عندهم أن يكون الفعل رصيداً للقول، فلاقيمة عندهم لقول حاز وجوها من البلاغة وافتقد رصيده من الفعل.

أحمد أحمد فشل

لوران - رمل الاسكندرية

هوامش المقدمة

١ – صدر عن الدار العربية للتوزيع بالاسكندرية ١٩٩٠

٢ – العبارة التى صدرنا بها كتابنا (البديع رؤية جديدة) هى: «انتهينا فى كتابنا (المدخل..) إلى أن الأدب لاينبغى أن يدرس من خلال تقسيمه إلى عصور زمنية... وأن هذا المنهج محتاج إلى إعادة نظر... ومنهجنا البديعى مرتبط بالأدب القومى...»

٣ – قام هذا التصور على دراسة جامعية طبع منها الجزء الأول فقط بعنوان (آراء الجاحظ البلاغية وتأثيرها فى البلاغيين العرب حتى القرن الخامس الهجرى) ط الهيئة المصرية العامة للكتاب بالاسكندرية١٩٧٩

٤ – صدر ابن تيمية كتابه (الحسبة فى الإسلام) بقوله: «أما بعد فهذه قاعدة فى الحسبة. أصل ذلك أن تعلم أن جميع الولايات فى الاسلام مقصودها أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هى العليا، فإن الله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لذلك وبه أنزل الكتب، وبه أرسل الرسل، وعليه جاهد الرسول والمؤمنون.. انظر (الحسبه فى الاسلام) لابن تيمية ط٢ ١٤٠٠هـ السلفية صفحات ٣، ٦، ٧، ٢٦، ٢٧، ٣٤، ٣٧ – ٤١.

٥ – الجاثية آية ٢٣. وارجع إلى: الأعراف ١٧٦، الكهف ٢٨، طه ١٦، الفرقان ٤٣، القصص ٥٠.

٦ - البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ط الخانجى بمصر ١٩٦١ - ٤/ ٢٣.

٧ - البحث الأدبى طبيعته، مناهجه، أصوله، مصادره للدكتور شوقى ضيف ط٦ دار المعارف بمصر ص ٩ - ١٢.

٨ - للعرب تصور للتشبيه أنه نشاط عقلى يمكن التماسه فى حديثهم عن العلاقة بين طرفى التشبيه وقرنوا بين هذا البحث والذكاء والقدرة على الابتكار وتفاوت الأدباء فى ذلك. وللغربيين دراسات عديدة أشهرها تصور كولردج للخيال. انظر الكامل للمبرد (باب التشبيه) ومن الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده للأستاذ محمد خلف الله أحمد.

٩ - مجموع رسائل الجاحظ تحقيق باول كراوس والحاجرى ط لجنة التأليف والترجمة ١٩٤٣ ص ١ - ٨.

١٠ - الجاحظ حياته وآثاره د. طه الحاجرى ط دار المعارف بمصر ١٩٦٢ ص ٣٢٩ - ٣٣٣.

١١ - دراسات فى الأدب الإسلامى محمد خلف الله أحمد ص ١٨٠.

١٢ - نشر د. محمد مندور عدة مقالات فى مجلتى الثقافة والرسالة، ثم جمعها وأضاف إليها طائفة أخرى من المقالات ونشرها فى كتابه (فى الميزان الجديد) وقد أعلن فيها أنه وجد آثارا واضحة لمنهج لايرتضيه فى دراسة الأدب ونقده. وأعلن أن النقد عنده هو فن دراسة النصوص الأدبية والتمييز بين الأساليب المختلفة وهو ما

لايمكن أن يكون إلا موضعيا. فهو إزاء كل نقطة يضع الإشكال ويحله، والذى يضع المشاكل الأدبية ليس علم الجمال ولا علم النفس ولاأى علم فى الوجود. وإنما هو الذوق الأدبى. وهذا شىء ليس له مرجع يرجع إليه.

١٣ - (أستاذ وقضية) بحث قدمه الدكتور أحمد فشل فى الندوة الدولية فى ذكرى الأستاذ محمد خلف أحمد ٢٢-٢٤/١٢/١٩٨٤ وألقاه فى الجلسة الرابعة. وعقدت بقسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية.

١٤ - دراسات فى الأدب الاسلامى الأستاذ محمد خلف الله. وارجع إلى تحرير أستاذنا أمين الخولى مادة (بلاغة) فى دائرة المعارف الاسلامية المترجمة تعقيبا على مقال المستشرق (شاده) chaade.